العلم والمباحث النفسية

موقف العلماء — نظر تاريخي

للسر اوليفر لدج

ان تاريخ العلم حافل بكل ما هو جدير بالاعجاب من مُعار الابتكار والابداع حفولهُ بكل ما هو غريب من آثار المحافظة والتقليد والتقييد . ففي كثير من فروع العلم ترى ان بعض المذاهب يبقى مسيطراً على العقول رغم تناقضهِ مع المباحث التي تجدّ ويُحسب كل خروج عليهِ من قبيل التعدي على ما هو كائن مكان الاجلال والتعظيم . ولقد تحتم على دعاة الحق في كل عصور التاريخ ان يصبروا على عواصف تهب في وجوههم من النقد اللاذع لا بل من الاضطهاد القاسي آناً والسجن والاستشهاد آونةً اخرى. فعلماء التشريح اضطروا الى ان يجروا مباحثهم في معزل عن سمع الجمهور وبصره والبأ باكتشاف دورة الدم قوبل بكثير من الاعراض والنقد . ومكتشفات غليليو كانت موضع الهزء والاستفاد حتى ان اساتذة العلوم رفضوا ان ينظروا بنظارتهِ الى الاجرام السموية لانهم كانوا يعتقدون ان ما يرونهُ فيها وهمٌ في وهم . كذلك اهملت النظريات والحقائق الواقعية سماً واتّم روجر باكون بانهُ مشعوذ افاك . ولا تزال تذكر ما كان مصير مكتشفات جول في حفظ القوة من الاعراض والاهمال في القرن التاسع عشر ! وكيف نبذت الجمعية الملكية الرسالة الاولى التي بيّن فيها صاحبها ان دقائق المادة متحركة . حتى وليم دمري واللورد ريلي لم يلقَ نبأ اكتشافهما لغاز الارغون كثيراً من الترحيب لانهُ كان قد ثبت في عقول العلماء ان كل المواد التي يتألف منها الهواء قد عرفت وقيست مقاديرها

وعليهِ لا ارى مكاناً كبيراً للدهشة والاستغراب اذا نظر العلماء شزراً الى مباحث السر وليم كروكس في الظواهر النفسية وارتابوا في نتائجها قائلين انها خارجة عن نطاق العلم . ولا تزال هذه المباحث ونتائجها معرضاً للريبة الى هذا اليوم . وبعض السبب في ذلك يرجع الى ان المباحث نفسها واكثر نتائجها نادرة في بابها غريبة عن كل ما عرفهُ البشر من قبل . لذلك عُني السر وليم كروكس بابتكار تجارب ميكانيكية مختلفة بسيطة منها ما يثبت التغير في وزن الاجسام حين تحركها تلك القوة الخفية . وكان يرجو ان يقبل بعض اعضاء الجمعية الملكية امتحان هذه التجارب ووسائلها ونتائجها . ولكنهم

بقوا مصممين بعلمهم فلم يقبلوا ان يحضروا اجتماعاً عرضت فيه

قد يصعب علينا الآن ان نصدّق ان الطريقة التجريبية في توسيع نطاق المعرفة وامتحان ظواهر الطبيعة والحياة ليست طريقة قديمة . ولكن فرنسيس باكون كان من اكبر مذيعيها وغليليو من اوائل العاملين بها وكان الجمهور من عامة وعلماء ينظر اليها اولاً نظرهُ الى بدعة غير لائقة . وخصوصاً لان بعض النتائج التي وصل اليها الباحثون الذين جروا عليها كان يغاير او يناقض كثيراً من التعاليم القديمة التي حباها تقلبها في التاريخ بمظهر من الروعة والاحترام. لاشك في ان أكثر المعارضة لهذه الطريقة جاء من قبل الفلاسفة الارسطيين ومن ذهب مذهبهم من الادباء والكتاب والوعّاظ الذين دافعوا عن التعاليم القديمة اشد دفاع لانهم كانوا يرون ان حقائق الجيولوجيا والفلك لا تتفق معها . واننا لا نزال نذكر مقاومة بعض رجال الكنيسة لحقائق الجيولوجيا حتى في هذا العصر

ولكن ثبات رجال العلم ونزاهتهم منحاهم الفوز في اكثر المباحث ومكناهم من ان يرفعوا فوق معاملهم ومكاتبهم علم البحث الحرّ ولو قلبت نتائجهُ الآراء القديمة . وقد حاز تطبيق المبدإ التجريبي في المباحث الطبيعية والكيماوية والبيولوجية رضاء الجمهور واحترامهُ والاتفاق شاملٌ الآن كل العلماء على الحقائق التي تمكن مشاهدتها وقياسها والاختلاف محصور في المذاهب التي تعلل هذه الحقائق فقط . وقد اصبح الباحثون لا يرون الآن شيئاً مقدساً في الآراء العلمية القديمة لا يجوز نقضهُ وانتهاك حرمتهِ اذا كانت المباحث الجديدة تستدعي ذلك لا بل قد تطرف بعضهم في ابتكار المذاهب الجديدة نقضاً للمذاهب القديمة من غير بحث كافٍ او ادلة وافية

والغريب انهُ رغماً عن انبساط ظل هذه الحال على جميع العلوم الطبيعية لا يزال «العلم النفسي» غير مستقلّ واصحابهُ لم ينحوا بعدُ وثيقة الحرية التي فاز بها اقرانهم في بدء النهضة العلمية الحديثة . فان الطريقة التجريبية في المباحث النفسية تملوها غمامة من التوجّس . والحقائق التي يثبتها رجال اكفاء لهم مكانة كبيرة بين رجال الفكر تبذها الجمعيات العلمية ولا تعنى بامتحانها . ويظهر ان سبب ذلك اعتقاد رجالها انها مغايرة لبناء الكون على ما هو مفهوم الآن ولذلك يرونها خارجة عن نطاق البحث العلمي . ولكن لا بدّ ان يجيء الزمن حين تزول المقاومة الشديدة — تزيلها اذاعة الحقائق واعادة اذاعتها من افواه رجال معروفين بالنزاهة والكفاءة في البحث والتعليل